عشب مبتلّ

سعيد الكفراوي

«الآن. لنمرح مثل الطيور الجارحة
وننتزع مسراتنا بالنضال العنيف»

أغلقتْ النافذتين، وبابي الشرفتين، وأطلت من خلف الزجاج فشاهدت النهر ومشهداً من المدينة.

خفق قلبها وهمست: «الليل حل».

سمعتْ أغنية على النهر، وَضرْب الجناح، وأحست بمسرى الليل، فتأملت وحدة النجوم البعيدة.

أسدلت الستائر، فاختفى النهر ومشهد المدينة.

بجلال دقت ساعة الصالة دقتين، وضاعت من رأسها الأغنية وكذلك خفق الجناح.

رَجَعتْ بظهرها وتأملت السيدة المصورة في الإطار الذهبي، والتي تمسك بضفيرتها المحلولة فيما ينوّر خلفها لون أحمر كالنار، يفرش أرض اللوحة ويشتعل.

مسحتْ بيدها الزجاج وتنهدتْ، ثم سارتْ حتى تجاوزتْ ممر الشقة الطويل.

آخر الممر مرآة مصقولة معلقة على الحائط، مثبت فوقها مصباح يرسل ضوءاً خفيفاً. وقفتْ أمام المرآة وشدتْ بدنها المنتصب فبان جيدها العاج على صفحة المرآة المصقولة، ثم رمتْ بشعرها خلف ظهرها وفتحت أزرار طوق الثوب وتحسست الثديين النافرين، وتسلل للقلب الحنين. تذكرت زوجها المسافر فتنهدت بحزن وابتأست. قبضتْ على أكرة الباب لتدخل غرفة النوم.

* * *

«أجلس في الكازينو ذي السلالم الحجرية، والتانـدة الصيفية الزرقاء، وآنية الزهر المصفوفة في الممرات، وأرمي برجلي على البلاط الملون في استهانة، وأرفعُ خلف رقبتي ياقة «الجينس». ما إن ألمحها خارجة من باب بيتها فرسة في ثوب تخطو على الأرض المعشبة حتى أرتجف. تلقي بالتحية للبواب العجوز الذي يقف على عجل ليفتح الباب الخارجي للسور. تقفُ لحظة أمام الباب فتهبّ ريح النهار وتطوح خصلات شعرها الفاحم، فتمد يدها تسوي الشعر النافر وتنظر ناحية الشمس، ولا تنظر تجاهي.

تمر أمامي فأحدق في الردفين، والبطن المدور، والثديين المشدودين بمشد من ورد، أراه من فتحة الثوب الواسع الكم، والذي لا يستر الإبط. في قدمها خف من قطيفة أرجوانية تطأ به قلبي. أنا العاشق الصياد المنتظر، يضربني دمي، وتنتفض عروقي بالشهوة الفاسقة».

* * *

انتبهتْ أنها لم تطفىء نور الصالة، فتركتْ مقبض غرفة النوم، عادتْ وضغطت زر النور، وتركت مصباح المرآة المصقولة مضاء. عادتْ ناحية غرفة النوم وتنهدت: «تأخر الوقت».

* * *

«زوجة مفارَقَة، تجدل ضفائرها وتودّع صباها، متروكة في مهبّ الريح ـ وأنا الريح ـ أحلمُ بها بالقدر الذي أثق فيه أنني

سوف أستيقظ بعد حصولي على فاكهة البستان فلا أجد مشتل النهر، وضريح الموتى، ولا عباءة الشيخ، وأتأكّد بعيني رأسي من هزيمتي المؤكدة».

* * *

لمحتْ صورة الزوج المبتسم في الممر الطويل وقد انحرف إطارها. عدلت البرواز، وبادلت الزوج نظرة وتذكرت.. مشهد الجسر. وحديقة الياسمين.. وأول رسالة.. وآخر وداع.

عادت وأمسكت بأكرة الباب.

* * *

أتْبعَهُا خطوة بخطوة، تلك التي في دمي. تعبرُ الرصيف وتجتاز الحديقة المسوّرة بالسرو العالي، حيث يتضوّع مسك الحديقة ويملأ الشارع بالأريج. تصعدُ مع النهر فيصعد معها دمي.

نَظَرتْ ناحيتي، فَتوهَمتُ بأنها تبتسم لي، فابتسمتُ. ولما خاب ظني قلتْ إنها تملك في وجهها فيروزتين ووسعت من خطاي وهمست لنفسي هي التي لا أنام إلا وهي في حضني كل مساء. تملأ الشارع بحضورها غير مستطيعة أن تخفي حيوية الجسد ـ له المجد ـ عن العيون المتطلعة لمشهد تجلّيها، وأعلم أنك غير مكترثة بي، وأن قلبك لا يعرف العداء حيث أنني وبكل سوء حظي مجهول لك ولجسدك. له المجد».

* * *

تَنهدَتْ وواربتْ الباب.

* * *

«ولما غادرت الميدان، واجتازتْ الشارع الرئيسي سقطتْ حقيبتها. أسرعتُ وانحنيتُ والتقطتها، ولما رأيتُ البحر ينظر ناحيتي، بزرقته العميقة، غصت فيه باحثاً عن عناقيد اللؤلؤ، وفروع الشجر الملون، ودفء القاع الحميم.

لما فارقتني فاح منها عبير الياسمين. أدركت أنا ـ الصفر ـ لكي أنال الثمرة عليّ أن أقطفها ولو بحدّ السكين.

وعرفتُ موعد مرورها من أمام نصب الشهيد، حيث النار المطفأة، والأزهار الذابلة، وحكمة الماضي المنسيّة، وصورة الجواد الأصهب المتكلّسة. وفي التوّلم أعد أذكر أن كان كل ما يحدث يخصّني أم يخصّ العاشق على مقعد الحجر. ما يجب أن يقع سوف يقع. ما دمت أمتلك أنا حدّ السكين، فعليّ أن أمتلكها هي أيضاً، وبعد ذلك، ذات يوم ستُستأنفُ قراءة الحكمة، ويدرك الذي يجهل، أنني ولفرط ما أثق في دمي الذي ورثته عن جدود صيادين ـ سوف أرى مأتمي ـ مأتمه لأنني ـ لأنه ـ حاول أن ينشغل منذ عرفها بالعشق الحرام حتى يتم حلمي ـ حلمه ـ الآتي إليه من طفولة زمانه حيث كانت هي قبل ذلك الزمان، لأحصل ـ ليحصل على فاجعته».

خطتْ إلى حجرة النوم. مشطتْ شعرها، ودلكتْ كفها بالكريم وتعطرتْ بالياسمين. تنشّقت ملابس زوجها المعلّقة على الحائط، وأخرجت من الدرج ربطة الرسائل الملفوفة بشريط القطيفة. تأملتها ثم وضعتها داخل الصندوق.

اتجهتْ ناحية باب شرفة حجرة النوم لتغلقه، وما أن سحبت الشيش حتى برز هو من خلفه بسترته «الجينس» وشعره المهوش، الساقط على جبهته.

أُخِذتْ السيدة الجميلة، وفغرت فمها تستعدّ للصراخ. كتم أنفاسها وسحبها داخل غرفة النوم وأغلق باب الشرفة، وأحكم الرتاج.

خفّف يده فقالت:

ـ سأصرخ.

فتح السكين، فسمعت تكة الترس، والتمع النصل تحت نور الثريا المعلقة في السقف.

حدقت للجدار فاصطدمت بصورة الزوج المسافر، على وجهه بسمة مطمئنة، وفي عينيه محبّة الأيام الخوالي.

سقطتْ عيناها على نصل السكين، ومدّت يدها متوسّلة. رجعت بظهرها حتى اصطدمت بحاجز السرير الخشبي:

ـ سأصرخ.

اندفع تجاهها فرجعت ملتصقة بالدولاب، فاحت منها رائحة الياسمين فانفجر دمه في شرايينه.

ـ لا تفضحني، أنا امرأة وحيدة.

«أخرج الآن من أيام الانتظار والتربّص، لأصل لآخر مدى

لما انتويته، مخلّفاً خلفي أسواري التي منعتني من الفعل كل هذه الشهور، الآن أقطع حقل القرنفل لأصل لثمر التفاح الذي يمدّ لي يداً».

ـ سأضاجعك، ولن تفلتي.

خافت السيدة وجفلت. وضع على الرقبة العاج نصل السكين وضغط، فشعرت بالوخزة المدببة، وعجز الأسر في الحجرة المحكمة الرتاج. صرخت فكتم أنفاسها وظل يضغط حتى رأى عينيها تجحظان.

ـ أنا جادّ فيما أنويه.

رفع يده فملأت صدرها بالهواء:

ـ لا فكاك، ولسوف أتمّ ما بدأت.

جثت على ركبتها واستعطفته:

ـ مجوهراتي، مالي. خذ منه ما تريد.

ـ أنت ما أريد.

ـ نزوة ستخلّف لي العار.

أحسّت بذراعيه تلتفّان حولها، فأزاحتهما بعيداً. هجمتْ عليها أنفاسه الحارة كالنار واندفع ناحيتها كذئب، وقد أسرها في حضنه. كانت في حالة من عدم التصديق وكأن ما يجري لها يحدث لأخرى، أو أنه يحدث لها في الحلم.

كان في ضمّه إياها قد أسرها كلّها فشعرت بغريزته وأحسّت بالدوار.

شقّ فتحة الثوب حتى الذيل. نفر الثديان خارجين، وعندما اهتزّ الثوب بان البطن المدور تحت الحرير الخفيف. كانت تشعر بمذلتها، وقلة حيلتها، وعندما أهوى بصفعة على وجهها انحبس صوتها.

ماتت مقاومتها وتركز انتباهها فيه وهو يمزّق بحدّ السكين ما بقي متّصلاً من الثوب. كانت تترى أمامها حياتها، وهجمت عليها المخاوف. وكلما نظرت للنصل المشرع خارت قواها.

ألقى بها على الفراش، وأطبق بشغف على الفاكهة الحرام، والتذّ بطعم الرحيق. دفعته في صدره وخمشت وجهه بأظافرها فرسمت وشماً من الدم اختط على الوجه الوسيم المبلل بعرق الاغتصاب الحارّ.

خارت قواها وأدركت أنها بمواجهة رجل يائس، بقدرته العشق حتى الموت.

«حتى إذا نَظرتُها عارية تحقّق حلمي، وفُتِحْت الأبواب التي تفضي إلى بساتين القرنفل والياسمين».

كانت الدنيا حارة أكثر مما يطلب الحب، تركته ينضو عنها ثيابها، ويتحسس مواضعها، ولما قالت له «راجع نفسك» قال لها «إنها لم تجرّب الانتظار، ومراقبة الزهر والشمس الحارة».

بكتْ. ما الذي يضنيها هذا الضنى؟. تذكّرت زوجها المسافر.

ضغط كتفيها وانتظمت حركته الرتيبة، يهصر بعنف شفتيها اللتين تهربان منه.

القاهرة